

بين ذكاء الانسان والحيوان

بقلم الاستاذ أحمد فوزي الهواني
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

من الظواهر النفسية العسيرة الإدراك ، والتي كثر الجدل حولها ، بل كان ولا يزال من الصعب الاتفاق على معناها وحدودها : الذكاء ؛ ودليلنا على هذه الصعوبة هو قلة من تكلم في هذا الباب من القدماء ، وإذا تكلم أحدكم فإن رأيه اليوم بعيد عن الاعتداد به كل البعد ، وهذا يعكس بعض الظواهر الأخرى التي تناوَلها الفلاسفة من قديم : كالعادة ، والذاكرة ، وتداعى المعاني ... الخ ، وما زلنا نأخذ بوجهة نظرهم فيها مع شيء من التعديل كثير أو قليل ، وقد تعجب إذا علمت أن أول من تكلم في الذكاء بصفة علمية هو (بينيه) BINET ، وعهد بينيه ليس عنا ببعيد ، بل نستطيع أن نعتبره معاصراً لنا ؛ ذلك أن التفرقة بين الناس من حيث الذكاء ، أي أن هذا ذكي وهذا غبي ، هي تفرقة نسبية ، فأنت تحكم على (قيمة) عملياته العقلية ، وقيم الأشياء تختلف حسب وجهات النظر ، بل أكثر من ذلك لا نستطيع أن نخضع الأشياء من حيث قيمها إلى قانون علمي أو قاعدة صحيحة . من هنا كان من الصعب ومن العسير تحديد الذكاء ومعناه ، ومن هنا كان من الصعب إلى حد ما ، قياس الذكاء واختلاف العلماء في طرق هذا القياس ، لأنك لا تستطيع أن تقيس شيئاً إلا إذا عرفت ، واتفقت مع العلماء على مدى معناه ؛ ومع ما في هذا من الصعوبة كما رأيت ، سنبدأ بتعريف الذكاء إذ لا مندوحة لنا من ذلك ، وستجد هذا التعريف متعدد النواحي ، هو خلاصة آراء كثير من العلماء والمدارس ، كل واحد على حدة ناقص بنفسه ، ولكنها في مجموعها صحيحة إلى حد ما : فالذكاء هو مظهر الآلة العقلية ، هو القدرة على أداء الأعمال أداء صحيحاً ، هو الوصول إلى نتائج حسنة ، هو حل المشكلات عملية كانت أم نظرية .

من هذه التعاريف المتعددة نستطيع أن نخترها في رأيين : الأول أن الذكاء هو مجموع العمليات العقلية أو هو جماع هذه الآلات ، وهذا هو رأي بينيه ، لأنه إذ أراد أن يقيس الذكاء قاس هذه العمليات العقلية ، مبتدئاً بأدائها إلى أرقاها ، مبتدئاً بالاحساس خصوصاً عند الأطفال الصغار ، ثم الإدراك الحسي ، والتذكر ، والتخيل ، والتفكير ، والاستدلال ، والتهيم . والرأي الثاني أن الذكاء هو التصرف ، أو هو حل مشكلة من المشكلات ، وبمعنى آخر لا ذكاء إلا في العمل وفي النتيجة ، وهذا رأي حديث نستطيع القول بأنه نتيجة الفلسفة العملية التي سادت أمريكا ، والتي يسمونها برجماتزم PRAGMATISM ، أما قياس الشيء بنتيجته فمرفوف ، ولكن في مجال

آخر غير مجال علم النفس ، في ميدان الاخلاق ؛ قال ابن ربيع في كتابه سلوك المالك (١) : « فأول نعمة أنعمها الله على الأعجم والفصيح حياة الروح ، لأن الحياة يدق الذوات ، وينال الشهوات ، وهي نعمة عامة على جميع الحيوان ليست خاصة للانسان ، لكن النعمة التي بها مخصوص العقل (٢) وبه حصل له النبل ، وبقوته ملك الحيوان وقهره ، وساس الأشياء ودبره . والاختصاص منه العلم وهو نتيجة العقل ، وبه التفاضل بمقدار النقص والفضل ، وبحسب الطلب والحث ، وبقدر الفحص والبحث ، وغاية ما خلق له وطلب منه العمل ، وهو الذي أجرى إليه وأنبأ عليه .. ولا حياة بالحقيقة لمن لا روح له ، ولا عقل لمن لا حياة له ، ولا علم لمن لا عقل له ... وقد سبق القول أن الذي خلق له الانسان وأريد منه هو العلم والعمل » .

بهذا التعريف الثاني الذي فصله العلماء المحدثون تفصيلا حسنا ، نستطيع التفرقة بين ذكاء الحيوان والانسان ، إن كان للحيوان ذكاء ؛ وقد فطن القدماء إلى مثل هذا ، ولو أنهم يخلطون حديثهم بالمسائل الدينية ، فقد قال ابن مسكويه (٣) : « ثم لا تزال هذه الأحوال تزايد في الحيوان حتى يقرب من أفق الانسان ... كالقردة وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها أن تكفي في التأدب بأن ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان إلى تدب ورياضة لها ، وهذه غاية أفق الحيوان التي إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها من أفقه وصار في أفق الانسان الذي يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التي يستعملها والصور التي تلائمها » .

ولا نريد أن نفرض رأى ابن مسكويه طويلا فرأيه في الذكاء بالمعنى الذي نريده وهو ما يرادف الكلمة الأجنبية INTELLIGENCE ظاهر الخطأ ، إذ محاكاة القردة أو أي حيوان آخر أو الانسان نفسه إذا ما كان غير لا يعد كل هذا ذكاء ، وإنما هو شيء آخر ليس مجال بحثنا اليوم ؛ ولكن ما أريد أن أفق عنده في رأيه مسألتان : الأولى تقسيمه العمليات العقلية إلى آفاق ، فهناك الأفق الحيواني ، ثم الأفق الانساني ، وهي فكرة في مجموعها صحيحة ولكنه لا يفصلها التفصيل الكافي ، وهذا الأفق الحيواني والانساني يسميه المحدثون المستوى NIVEAU ، وقد تعود إلى بحث هذه النقطة فيما بعد ؛ والمسألة الثانية هي شرحه للأفق الانساني بأنه يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التي يستعملها ، يريد الحواس والمدركات الحسية ، ثم الصور التي تلائمها ، وهذه في الواقع هي بالتقريب كل العمليات العقلية التي يتكون من مجموعها الذكاء كما قدمنا ، ونذكر (بينيه) عندما أراد قياس الذكاء .

ثم يقول في موضع آخر ، وهنا يطابق رأى ابن أبي ربيع ، ولو أنه ليس واضحا وضوحه ، ويطابق الرأي الذي نذهب إليه من أن الذكاء هو التصرف فيقول : « وأواخر الزنج وأشبههم

(١) كتاب سلوك المالك في تدبير المالك لشهاب الدين بن أبي ربيع - طبعة الكردي بمصر ص ١٢ و ٤٣ .

(٢) يريد بالعقل الذكاء .

(٣) تهذيب الاخلاق لابن مسكويه - طبعة الكردي ١٣٢٩ هـ ص ٨٣ و ٨٤ .



قبل أن يستعمل القرود العصا يجب عليه أن يبنى مرتعاً من الصناديق،
يضعها تحت الشيء الذي يقصده ، حتى يستطيع الوصول إليه.

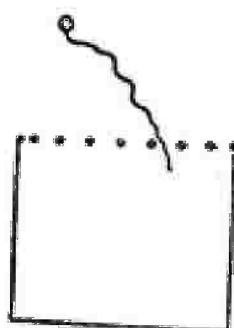
من الأمم التي لا تميز عن القروء إلا بمرتبة يسيرة ، ثم تزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم ، فيحدث فيهم الذكاء ، وسرعة الفهم ، والقبول للفضائل ، وإلى هذا الموضع ينتهي فعل الطبيعة التي وكلها الله عز وجل بالمسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لا اكتساب الفضائل واقتنائها بالإرادة والسعي والاجتهاد »

بهذا الرأي عن الذكاء ، وهو وجود مشكلة يحاول الإنسان حلها ، ويتقدر توفيقه في الحل يكون ذكاءه ، نستطيع القول بأن الحيوانات الراقية عندها ذكاء ، ونستطيع من ناحية أخرى معرفة مدى هذا الذكاء بملاحظتها ملاحظة خارجية عند تحقيق بعض الأعمال ، طالما كنا لانستطيع أن نتغذى إلى عقل الحيوان ومعرفة ما يدور بخلفه ، وقد يقول قائل : إن أعمال الحيوان التي ندعي أنها نتيجة الذكاء ، إن هي إلا أعمال غريزية لا تدخل للعقل فيها ، ولا سلطان له عليها ، أو هي نتيجة التجربة وحذف الأخطاء ESSAIS ET EREURS ولذا وجبت التفرقة بينها . فالأعمال الغريزية هي سلوك فطري أمام مؤثر خارجي ، وهذا السلوك نوعي أي عام في جميع أفراد النوع ، ولا يتغير بتأثير هذا المؤثر الواحد ، بينما أعمال الذكاء هي على العكس من ذلك : غير موروثة ، وشخصية ، ومرنة ، وتصدر عند مؤثر أو موقف جديد يتغير غير ثابت . يجب إذن إذا أردت مشاهدة ذكاء الحيوان أن تدفعه إلى موقف لم يسبق أن وقفه ، ولم يسبق له أن تصرف فيه وسلوكه ، ثم ترى ما ذا يفعل ؟ وهذا ما عمله العالم الألماني (كوهلر) في تجاربه على القروء الراقية المسماة « الشبازي » والتي أودعها كتابه « عقلية القروء » ويعتبر كتابه هذا حجة لكل من أراد الاطلاع على عقلية الحيوانات ممثلة في أرقاها وهي القروء .

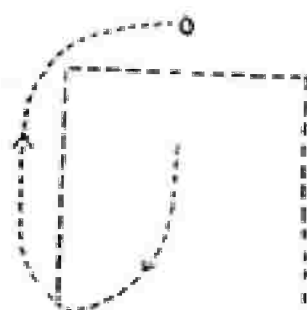
ولنتقل ما يقوله (كوهلر) في هذا الصدد : « إذا قدمت إلى قرد غذاءه ، فانه ينحو إليه الطريق العادي : الخط المستقيم ، فإذا اعترض الطريق عقبات مختلفة الأنواع والأحجام كان عليه أن يجد لنفسه مخرجاً ؛ إنك لا تجد أي قرد يضطرب أمام العثرات المعقدة التي تصعب على الكلب أو القط ، وتكون أكثر صعوبة بالنسبة لفرخة ؛ لنفرض إذن أن هذه العقبة كأداء لا يستطيع أن يتخطاها ، ولكن الهدف (ليكن أي نوع من المأكولات أو العلكة) مربوط بخيط طرفه في متناول الحيوان ، تجد القرد يعرف كيف يستعمله لجذب الهدف الذي هو في دائرة بصره ، بينما يعسر على الكلب هذا العمل ، مع عدم وجود أي عائق فيسولوجي يمنعه من ذلك .

والآن إذا كانت هذه الآلة - التي تستعمل في الوصول إلى الهدف غير متصلة بالهدف وكانت عصا يجب استعمالها للوصول إلى الغرض ، فأنك تجد أن أي قرد منخط لا يستطيع استعمالها ، مع أنه يستطيع إمساك العصا بيده ، إنه يسحب العصا إذا مارأها متصلة بالشيء ، ولكنه لا يستطيع أن يبيد هذا الاتصال المنقسم بل لا يحاوله ، وعلى العكس من هذا يستعمل الشبازي العصا كما يفعل الإنسان .

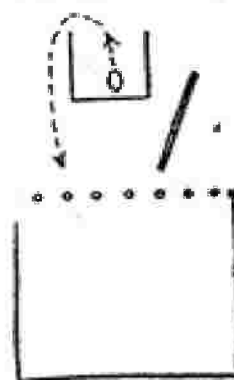
فإذا تعقدت المسألة أكثر من هذا ، فوضع الهدف في صندوق مفتوح من أعلاه ومن الجانب المضاد للتقصص ، كان على القرد للحصول على الهدف أن يدفعه ، وأن يبعده عنه ، حتى يخرج من هذا السوار إذا ما ضرب حائط الصندوق العرضي ، فالغاية النهائية هي تقريب الشيء ، والوسيلة أو الغرض الثانوي هو إخراجه من السوار المحيط به بإبعاده ، فهذا العمل الثانوي لا معنى له في ذاته إلا بالنسبة للعمل الرئيسي ، ثم هو فوق ذلك يجبر الحيوان على أن يغالب النزعة الطبيعية لتقريب الشيء منه ؛ فأذكاء الشمبانزي وحدهم هم الذين ينتجون حلاً صحيحاً لهذه المشكلة .



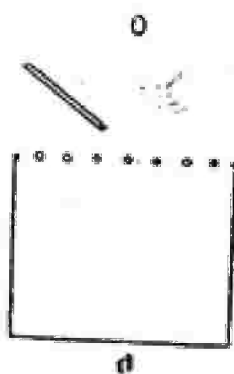
c
قص ذوقضبان
والهدف مربوط بالحيط



a
سور
يجب أن يلف حوله



e
يجب أن يبعد الشيء عنه
مع استعمال العصا



d
مشكلة استعمال العصا

جميع هذه المواقف الصناعية جديدة على الحيوان وتتطلب من ناحيته ابتكاراً يجب أن تتوقف تصاعيفه على الظروف .

فأنت ترى من الأمثلة السابقة أن تصرف الحيوان فيها هو نتيجة الذكاء لأنه خاص ببعض الأفراد دون النوع ، لأنه تصرف في حل مشكلة جديدة وغير ثابتة ، فهو تصرف غير غريزي .
أحمد فؤاد الأهواني